

جغرافية روما ونشأتها وتكوين الامبراطورية الرومانية

الاستاذ المساعد الدكتور
كاظم عاصي شعبان
كلية التربية - جامعة البصرة
العراق

الخلاصة

أنشأت مدينة روما على مجموعة من التلال لذلك عرفت بمدينة التلال السبعة ومن أشهر تلك التلال تلال كابيتول وتل الأفنتين وتل البلاتين وكان نهر التايبر يشكل وسيلة الاتصال بين روما والبحر التيراني وقد هيا الموقع المتوسط فرصة طيبة لروما كي تتحكم في السواحل الغربية لإيطاليا كذلك فإن موقعها جعل منها محطة اتصال بين شمال إيطاليا وجنوبها. ومما يجدر بالملاحظة هنا هو أن روما تسمى مدينة التلال السبعة فإنها لم تشمل التلال السبعة جميعا الواقعة على الضفة الشرقية للنهر إلا في الشطر الأخير من عصر الجمهورية ، ويذكر الباحثين أن موقع روما نفسها في وسط إيطاليا وإشرافها على نهر التيبر مكنتها من العمل بحرية في كل الاتجاهات وحققت أهدافها التوسعية بفضل إصرارها وطموحاتها الكبيرة وتنفيذها لسياسات ناجحة في علاقاتها مع خصومها حتى دانت لها شبه الجزيرة الإيطالية. كان موقع روما في وسط شبه الجزيرة عاملاً بالغ الأهمية في بسط سيادتها حيث ان كثرة عدد سكان شبه الجزيرة وموقعها في البحر المتوسط لم يكون أقل أهمية في بسط سيادة روما على عالم هذا البحر ذلك أن روما نجحت في السيطرة على شبه الجزيرة حتى أتاح لها موقعها ووفرة المقاتلين الذين كانوا تحت إمرتها أن تعالج خصومها واحدا بعد الآخر في الأوقات المناسبة لها وأن تبني إمبراطوريتها المترامية الأطراف.

الخلفية الجغرافية لروما

ما أن تم انشاء مدينة روما حتى ازدهرت الحياة بفضل المزايا التي يتمتع بها موقعها. وكانت جزيرة التيبير الواقعة في مجرى النهر اسفل الكابيتول مباشرة تعتبر موقعا ممتازا لأقامة قنطرة. وفي ذلك المكان اقيمت القنطرة المقدسة المعروفة بأسم قنطرة سوبليكوس على ايدي جماعة من الكهنة تباشر صيانتها وهذه الجماعة اشتقت اسمها من تلك الوظيفة الا وهي بناء القناطر(1).

كان الطريق الذي يمتد عبر التيبير في ذلك المكان على جانب كبير من الاهمية اذ كان يربط بين اتروريا وكامبانيا وهما اكثر المناطق ازدهارا في ايطاليا. وكان بشمال شرق المدينة طريق هام اخر يؤدي الى وادي التيبير ومن هناك الى وادي نهر البو عن طريق ممرات سهلة في جبال الابنين. وفي اوستيا بالقرب من مصب النهر كانت توجد مناطق هامة لاستخراج الملح الذي كان من اهم السلع في ذلك العصر. لم يكن من المستطاع اقامة الحياة الحضرية في مدينة روما الا على اساس الزراعة ومن الممكن الحكم على مساحة المزارع الاولى للشعب الروماني بالموكب المقدس والذي كانت تقوم به جماعة اخوة ارفال. وكان يسمى امبارفاليا لمباركة حاصلات كل عام. وتعرف اربع نقاط لوقوف الموكب تبعد خمسة او ستة اميال عن المدينة في الطرق المتفرعة الى الجنوب الشرقي وعلى ذلك كانت هناك منطقة تقع بين الضفة اليمنى للنهر يبلغ طولها حوالي 12 ميل وعرضها ستة اميال تقريبا بها راس الجسر يفغ شمالي النهر على تلال يانيكولوم والفاتيكان وكانت اول منطقته ريفيه تمد روما بالمواد الغذائية وقد اتسع نطاقها فيما بعد فشملت معظم سهل لتيوم (2).

ان موقع روما المتميز وسط شبه الجزيرة الإيطالية عند مكان يسهل فيه عبور نهر التيبير وعلى بعد مسيرة يوم من الشاطئ الغربي وبذلك كانت في مأمن من قرصنة البحر مما أكسبها ميزة كبرى عن مدن الشمال والجنوب وبعدها سيطرت روما على شبه الجزيرة الإيطالية تحسنت مواصلاتها الداخلية بفضل شبكة الطرق العامة التي أنشأتها لربط أجزاء البلاد المختلفة بعضها ببعض. لم تكن إيطاليا مؤهلة تأهيلاً كاملاً للدور الذي قامت به في مشوار الحضارة العالمية فأهلها بسطاء وحضارتهم عادية وتقدمها المادي بسيط ، ولم تكن تعرف الكتابة وفنها نسبيا ليس راقيا ولذلك أعتبر المؤرخون أن نشأة روما حد فاصل بين فترتين حضاريتين ،وقد كان هناك خلاف بين المؤرخين القدماء حول نشأة روما ولكن التاريخ الذي أنفق عليه هو ابريل 753 ق.م وبعدها أصبحت روما وشعبها صاحبة الإنجاز الأول والأكبر في كل تاريخ إيطاليا القديم ولولاها ما عرف العالم القديم والحديث شيئا عن إيطاليا.

اما من ناحية الجغرافية الساحلية في ايطاليا وروما فهي على العكس تماما مما نعرفه عن السواحل اليونانية حيث لم يعرف الساحل الشرقي الاميناء برنديزي بينما الساحل الغربي فكان ميناء اوستيا وهو على مصب نهر التيبير ويقع في مدينة روما. وعلى الرغم من ان كلا نهري التيبير والبو لم يكونا صالحين لدخول السفن الكبيرة وذلك لكثرة الترسبات الطينية في مدخل المصب ولم يكن البحر وامواجه بقادرة على اذابة تلك الترسبات وذاها ما حد من اهمية روما الساحلية وكميناء مهم (3).

وكانت جبالها مصدر كوارثها كما كانت مصدر جمالها وروعته، ذلك أن الزلازل والثورات البركانية كانت من حين إلى حين تبتلع جهود الأجيال المتعددة وتطمرها في أطباق الرماد أو تحرقها بحمم البراكين؛ ولكن الموت كان في هذه البلاد، كما هو في معظم بلاد العالم، مصدر للحياة ونعمة من أنعمها . ذلك أن الحمم المختلطة بالمواد العضوية كانت موردا لإخصاب التربة لا ينضب له على مدى الأيام معين (4).

نشأة مدينة روما وتأسيسها

ليس هناك وثائق أو إثباتات تاريخية تحدد مجيء الرومان إلى شبه الجزيرة الإيطالية وتأسيسهم مدينة روما وإنما يعتمد المؤرخون على مجموعة من الأساطير والروايات التي تناقلها الأشخاص الذين درسوا التاريخ القديم على مر العصور.

وتؤكد الاكتشافات الأثرية والمستندات التاريخية وقائع تأسيس القرية الصغيرة كان حول النزاع الأول بين الاخوين رومليوس وريموس حول تأسيس مدينة روما والنزاع الثاني القائم بين رية سلفا وابيها ايمليوس حول مصير الطفلين فقامت الأم برمي التوأمين في النهر التيبير ويروى كذلك ان التوأمين قد رضعا الذئبة لمدة تزيد عن اسبوع. ثم عثر عليهما راعي كان يرعى بالمنطقة ونقلهما مباشرة إلى زوجته ابن قاما بتربيتهما حتى بلغا السن 18 عاما روما نسبة إلى مؤسسها روميلوس ونصب نفسه ملكاً عليها كأول ملك على روما والمناطق المحيطة بها، وأسس بذلك سلسلة من الملوك، بلغ عددهم سبعة حكموا روما. وتشير الروايات إلى أن روميلوس ركز خلال تأسيس الدولة على النواحي العسكرية وقد وضع إستراتيجية تتلخص في السيطرة على الأراضي المحيطة بروما، وأرسى القواعد الأولى للشرائع والديانة الرومانية، والتوسع والسيطرة على الأقاليم القريبة والمجاورة (5).

ان اقامة مستعمرة لاتينية على تل البلاتين ومستعمرة سابينة على تل الكويرينال لم يؤد الى وجود مدينة روما . والروايات المتواترة التي تقول بأن رومولوس قد اسس روما في 21 ابريل عام 753 ق.م تنطوي على الحقيقة التالية وهي ان انشاء مدينة في فجر تاريخ ايطاليا كان اجراء دينيا سياسيا يقوم بتنفيذه زعيم واحد طبقا لطقوس دينية رسمية لايجيد عنها. فبعد ان يوثق المؤسس البطل ثورا وبقرة معا يجب عليه ان يشق بمحراث الاخود المقدس الذي سيحدد رقعة المدينة. وفي داخل المدينة وفوق اعلى تل تخصص مساكن للالهة الذين يصبحون فيما بعد حماتها. ثم يخطط الطريقان الرئيسيان وهما الطريق الممتد من الشمال الى الجنوب والطريق الممتد من الشرق الى الغرب وبعد تحديد مساحة المدينة بهذه الصورة فانها تصبح بذلك صورة مصغرة تتفق والبقعة المقدسة من السماوات بجهاتها الاصلية الاربعة والاركان الاربعة السماوية. من المؤكد ان طقوس تدشين مدينة روما قد اجريت تحت ظل نفوذ اترسكي وربما في ظل حكم ملك اترسكي الذي قام بدور المؤسس. ومنذ تلك اللحظة شقت روما حياتها الخاصة وطريقها المقدر الذي كانت الالهة على علم به (6).

لم يكن في روما أزقة، الا اذا اطلقنا هذا اللفظ على رؤوس الطرق المؤدية اليها. كما كانت المنازل فيها بائسة وبعيدة، اذ قلما كان الناس يمكثون فيها حيث انهم يمضون جل وقتهم اما في الحقل واما في الميدان للتخاطب والتشاور. ومع ذلك فقد بدت عظمة روما في هندسة عماراتها العمومية والمعالم العريقة التي جسدت ومازالت تجسد تلك العظمة (7).

هناك شبه اتفاق على ان نشأة مدينة روما جاءت لتكون في الغالب قلعة محصنة للدفاع عن اللاتين ضد عدوان الاتروسكيين اللذين يعيشون شمال نهر التيبير وربما لم تكن هذه المدينة الا نقطة حراسة امامية في ذلك التاريخ من نشأة روما والتي نسجت حولها الاساطير الكثيرة (8).

أصل الرومان

الرومان هم شعب هاجر من شرق أوروبا إلى الجزر الإيطالية ابتداء من 1200 ق.م أي القرن الثاني عشر قبل الميلادى وقاموا بتأسيس مدينة روما القديمة، ثم عمل هذا الشعب على تنظيم وتطوير مؤسساته السياسية والعسكرية والاجتماعية والثقافية وبدأ بالتوسع التدريجي وأسس دولة سيطرت في بادئ الأمر على شبه الجزيرة الإيطالية ثم اتسعت هذه الدولة وسيطرت على معظم العالم القديم وأصبحت حدودها شاسعة امتدت من الجزر البريطانية وشواطئ أوروبا الأطلسية غرباً إلى بلاد ما بين النهرين وساحل بحر قزوين شرقاً ومن وسط أوروبا حتى شمال جبال الألب والى الصحراء الإفريقية الكبرى والبحر الأحمر جنوباً، وبذلك كانت مثالا على مفهوم الدولة الجامعة ذات الطابع الاستعماري. الرومان امة قوية البنين، ومتمينة الأركان، عظيمة الشأن وقد استعمرت الأمة الرومانية كل من يجاورها من الدول، وكل من يسكن حول البحر الأبيض المتوسط من الشعوب، بمثانة أخلاقها، وقوة نفوسها، وبتحاديها وتآزرها، وإخلاصها للوطن، وتضحيتها في سبيل المصلحة العامة. لا يتحاسد أبناؤها فيتفرقوا ويتناحروا، ولا يتنازعون فيفسلوا، بل كانوا يدا واحدة في السراء والضراء، وبنينا مرصوصا في النعماء والبأساء، فسادوا بهذه الأخلاق العظيمة أما كانت أكثر منهم في العلم والغنى والمدينة، وتغلبوا بهذا الاتحاد، وبقوة الأخلاق على شعوب كانت أكثر منهم في العدد، وأقوى في الشجاعة، وامهر في الفروسية، ولكنها

اقل منهم في الاتحاد، والتآزر، والإخلاص للأمة، وفي النظام، والطاعة للرؤساء. كان الرومان امة قوية، ودولة عتيبة، حتى ضعفت أخلاقهم بالحضارة، وتغيرت نفوسهم بالأعراق الدخيلة، وذهب اتحادهم بالأناانية، فتكالبوا على الرئاسة، وتناطحوا على السلطان، واستولى على نفوسهم حب المال والشهوات، فضعفوا وخمدت جذوتهم فبادوا. الرومان أصلهم من اللاتين. وينسبون إلى عاصمتهم روما. فهي نواة دولتهم، وسبب اتحادهم. وموطنهم هو ايطاليا. وكان لروما موقع ممتاز مكن الرومان من توحيد ايطاليا وجعلها دولة واحدة، والمزج بين عناصر سكانها فصارت امة واحدة متساندة. كما كان لايطاليا موقع ممتاز جعل الرومان يتصلون بمختلف الشعوب المتمدنة، فيقبسون من حسناتها، ويستولون عليها بعد ذلك.

كانت روما في وسط ايطاليا، وايطاليا في وسط العالم القديم. انها تشق البحر المتوسط في وسطه فهي وسط الوسط. وهذا الموقع الممتاز هو الذي جعلها تبسط نفوذها، وتشمل بسطانها طل ذلك البحر المتوسط. وكان الرومان في أول أمرهم على النظام الملكي وكان الملوك في البداية مخلصين عادلين يعملون للدولة لا لأنفسهم. ثم شاخت الملكية، وفسدت أخلاق الملوك. وكان الرومان شعبا قويا، فلم يطق حكم الفرد واستبداده فاسقط الملكية في سنة 508 ق.م وكان عمرها 246 عاما وأول ملوكهم هو روملوس وآخرهم هو طارقينوس. وفي سنة 508 أعلن الرومان الجمهورية فانتخبوا مجلس الأشراف الذي يشتمل على ثلاثمائة وعشرين عضوا، اختاروهم من الأسر الشريفة حيث ويشترط في العضو مع شرف الأسرة، الكفاءة، والإخلاص للأمة وعضوية كل واحد منهم دائمة إلى ان يموت وهذا المجلس يسمى مجلس الشيوخ الروماني (9).

تكوين الإمبراطورية الرومانية

كانت روما قد حققت في المرحلة الاولى السيادة البحرية على غرب ايطاليا وحول صقلية وفي المرحلة الثانية استطاعت روما ان تهزم قرطاجه في موقعة زاما بشمال افريقيا عام 202 ق.م بعد سلسلة طويلة من تبادل الهزائم والانتصارات بين قادتها وبين هانيبال القائد القرطاجي العظيم والذي اوقع بالجيش الروماني افدح الخسائر في موقعة كنائي عام 216 ق.م ، تلك المعركة التي اصابت المجتمع الروماني بالشلل والفرع التام فلجأوا الى الالهة لارضائها لعلها تكشف عنهم تلك الغمة والكارثة العظيمة. لكن روما بزعامة السانتوس القوية الصارمة والهادئة كذلك استطاعت ان تضمد جراحها باسرع مايمكن ولن تمض شهور على خسارتها حتى كانت امورها تسير سيرها الطبيعي حيث خلقت من الهزيمة انتصارا جديدا في موقعة ميتاروس على هاسروبال اخى هانيبال والذي قتل في الميدان عام 207 ق.م وذلك بعد نجاح روما في الذود عن نفسها وصد هجمال هانيبال عن اوار المدينة في عام 211 ق.م.

اما المرحلة الثالثة فقد تمكنت روما من تدمير مدينة قرطاجه ذاتها وتحويلها الي ولاية رومانية ضمن املاك الشعب الروماني في عام 146 ق.م على يد القائد الروماني ايميليانوس والذي استولى عليها بعد حصار دام 15 شهرا وتم تدميرها بالكامل عام 133 ق.م. قوة ونفوذ روما تعزز بعد معارك كثيرة منها الانتصار على امير مملكة نوميديا عقابا لها على انحيازها مع القرطاجيين ضد روما في موقعة زاما فلم تنس روما ذلك وكذلك كسر شوكة مملكة بنطوس على سواحل البحر الاسود وهزيمة مثيراداتيس الذ اثار متاعب الايطاليين والرومان في اسيا الصغرى. استمرت الفتوحات والانتصارات الرومانية تواليا حتى الت مملكة بيثينيا الى الرومان بناء على توصية ملكها عام 75 ق.م وتحولت الى ولاية رومانية كما حققت روما نصرا كبيرا بالقضاء بشكل نهائي على المشاغب مثيراداتيس في البحر المتوسط عام 77 ق.م وفر هذا الملك هاربا الى ارمينيا تاركا مملكته للرومان (10).

المصادر

- (1) إبراهيم نصحي، تاريخ الرومان منذ أقدم العصور وحتى عام 133ق.م، الجزء الأول، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، 1983، ص ص 73- 74.
- (2) دونالد ردلي ، حضارة روما، ترجمة فاروق فريد وجميل ابراهيم، مراجعة د. محمد صقر خفاجة، دار نهضة مصر للطبع والنشر، الطبعة الأولى، القاهرة، 1964، ص ص 20 - 21.
- (3) دونالد ردلي، المرجع السابق، ص 22.
- (4) ويل دورانت، قصة الحضارة، المجلد الثالث، تقديم الدكتور محيي الدين صابر، ترجمة الدكتور زكي نجيب واخرين، دار الجيل للطباعة، بيروت، 1988، ص 5.
- (5) مونتسيكو، تأملات في تاريخ الرومان – اسباب النهوض والانحطاط، ترجمة عبدالله العروي، الطبعة الاولى، المركز الثقافي العربي، المغرب، 2011، ص 21.
- (6) دونالد ردلي، المرجع السابق، ص 23.
- (7) مونتسيكو ، المرجع السابق، ص ص 21-22.
- (8) محمود ابراهيم السعدني، حضارة الرومان، الطبعة الاولى، المجلد الاول، عين للدراسات والبحوث الانسانية الاجتماعية، القاهرة، 1998، ص 57.
- (9) العهد الروماني بالمغرب 146ق.م – 430 م، منشور مستقل، ص ص 303-306.
- (10) محمود ابراهيم السعدني، المرجع السابق، ص ص 93-96.